البطل في صورة رسول

محمد بن عبد الله

من كتاب:



إعداد بإشراف:

أ. د. جمال بن عمار الأحمر الأندلسي الأنصاري

البطل في صورة رسول

محمد بن عبد الله

ننتقل الآن من تلك العصور الخشنة ، عصور الوثنية الشمالية الى دين اخر في أمة اخرى ، دين الاسلام في أمة العرب ، وما هي الا نقلة بعيدة وبون شاسع ، بل أي رفعة وارتقاء نراها هنا في أحوال العالم العامة وأفكاره .

في هذا الطور الجديد لم ير الناس في بطلهم إلهاً بل رسولاً بوحي من الاله ، وهذه هي الصورة الثانية للبطل ، فأما الأولى وأقدم الجميع فقد ذهبت الى حيث لا تعود ابداً ، ولن ترى الناس يؤلهون البطل مهما عظم ، بل لنا ان نسأل أكان من أي ناس قط أنهم عمدوا الى رجل يرونه ويلمسونه ، فقالوا : « هذا خالق الكون » انا لا اظن ذلك ، انما يقولون هذا القول في رجل يتذكرونه أو كانوا رأوه ، على أن هذا ايضاً لن يكون قط ، ولن يؤله البطل من ثم فصاعداً ولو بلغ منتهى العظمة .

لقد كان اعتبار الرجل العظيم إلهاً غلطة وحشية فاحشة ، ولكن دعنا نقل ان الرجل العظيم ما برح في جميع الازمان لغزاً من الالغاز لا ندري كيف نفسره ولا كيف نستقبله ونعامله ! ولعل اهم مزايا جيل من الاجيال هو كيفية استقباله لرجله العظيم ، وسواء استقبلوه كإله او كنبي او كيفما كان ، فذلك هو السؤال الاكبر . ومن طريق اجابتهم عن هذا السؤال ، وكيفية مذهبهم في ذلك الامر ، يمكننا ان نبصر صميم حالتهم الروحانية كما لو كان من خلال نافذة .

فان الرجل العظيم اذا كان مصدره واحداً ، اعني من ذات الله ، فهو جنس واحد : « أودين » او « لوثر » أو « جونسون » او « بارنز » وأرجو

أن اوفق الى افهامكم أن جميع هؤلاء من طينة واحدة ، وانه لم يُحدث الخلاف العظيم بين احدهم والآخر إلا الهيئة التي يكتسونها هم او الطريقة التي يستقبلهم بها أهل زمنهم .

❁

لقد اصبح من اكبر العار على اي فرد متمدين من أبناء هذا العصر ، ان يصغي الى ما يُظن من ان دين الاسلام كذب ، وان محمداً خداع مزور . وآن لنا ان نحارب ما يُشاع من مثل هذه الاقوال السخيفة المخجلة ، فان الرسالة التي أداها ذلك الرسول ما زالت السراج المنير مدة اثني عشر قرناً لنحو مائتي مليون من الناس أمثالنا خلقهم الله الذي خلقنا ، أفكان احدكم يظن ان هذه الرسالة التي عاش بها ومات عليها هذه الملايين الفائتة الحصر والاحصار اكذوبة وخدعة ؟ أما أنا فلا استطيع أن ارى هذا الرأي ابداً ، ولو ان الكذب والغش يروجان عند خلق الله هــــذا الرواج ويصادفان منهم مثل ذلك التصديق والقبول ، فما الناس الا بُله ومجانين ، وما الحياة الا سخف وعبث وأضلولة كان الأولى بها ان لا تُخلق .

فوا أسفاه ما اسوأ مثل هذا الزعم ، ومــا اضعف اهله وأحقهم بالرثاء والمرحمة . وبعد ، فعلى من اراد ان يبلغ منزلة ما في علوم الكائنات ، ان لا يصدق شيئاً البتة من اقوال اولئك السفهاء ! فانها نتائج جيل كُفْرٍ وعصر جحود وإلحــــاد ، وهي دليل على خبث القلوب ، وفساد الضمائر ، وموت الارواح في حياة الابدان ، ولعل العالم لم ير قط رأياً اكفر من هذا وألأم ، وهل رأيتم قط معشر الاخوان ان رجلا كاذباً يستطيع ان يوجد ديناً وينشره ؟

عجباً والله ، ان الرجل الكاذب لا يقدر ان يبني بيتاً من الطوب ! فهو اذا لم يكن عليما بخصائص الجير والجص والتراب ومــا شاكل ذلك فما ذلك الذي يبنيه ببيت ، وانما هو تل من الانقــــاض ، وكثيب من أخلاط المواد . نعم ، وليس جديراً ان يبقى على دعائمه اثني عشر قرناً يسكنه مائتــــا مليون من الأنفس ، ولكنه جدير ان تنهار اركانه فينهدم كأنه لم يكن . واني لأعلم انه

على المرء ان يسير في جميع امره طبق قوانين الطبيعة ، وإلا أبت ان تجيب طلبته وتعطيه بغيته .

كذب والله ما يذيعه اولئك الكفار وان زخرفوه حتى خيلوه حقاً ، وزور وباطل وان زينوه حتى اوهموه صدقاً ، ومحنة والله ومصاب ان ينخدع الناس شعوباً وامماً بهذه الاضاليل ، وتسود الكذبة وتقود بهاتيك الأباطيل . وإنما هو كما ذكرت لكم من قبيل الاوراق المالية المزورة ، يحتال لهـا الكذاب حتى يخرجها من كفه الاثيمة ويحيق مصابهـا بالغير لا به ، وأي مصاب وابيكم ؟ مصاب كمصاب الثورة الفرنسية واشباههـا من الفتن والمحن تصيح بملء افواهها : « هذه الاوراق كاذبة ! »

اما الرجل الكبير خاصة ، فاني اقول عنه يقيناً انه من المحـال ان يكون كاذباً ، فاني أرى الصدق أساسه واساس كل ما به من فضل ومحمدة ، وعندي انه ما من رجل كبير ، ميرابو او نابليون او بارنز ، او كرمويل ، كفء للقيام بعمل ما الا وكان الصدق والاخلاص وحب الخير اول باعثاته على محـاولة ما يحاول ، اعني انه رجل صادق النية ، جاد مخلص قبل كل شيء ، بل اقول ان الاخلاص – الاخلاص الحر العميق الكبير – هو اول خواص الرجل العظيم كيفما كان . لا اريد إخلاص ذلك الرجل الذي لا يبرح يفتخر للناس باخلاصه ، كلا ، فان هذا حقير جداً وايم الله ، هذا اخلاص سطحي وقح ، وهو في الغالب غرور وفتنة ، انما اخلاص الرجل الكبير هو مما لا يستطيـــع أن يتحدث به صاحبه ، كلا ، ولا يشعر به ، بل لأحسب انه ربمـــا شعر من نفسه بعدم الاخلاص ، اذ اين ذاك الذي يستطيع ان يلزم منهج الحق يوماً واحداً ؟

نعم ان الرجل الكبير لا يفخر باخلاصه قـط ، بل هو لا يسأل نفسه أهي مخلصة او بعبارة اخرى اقول ان اخلاصه غير متوقف على ارادته ، فهو مخلص على الرغم من نفسه سواء اراد ام لم يرد ، هو يرى الوجود حقيقة كبرى تروعه وتهوله ، حقيقة لا يستطيع ان يهرب من جلالها الباهر مهما حاول . هكذا خلق الله ذهنه ، وخلقة ذهنه على هذه الصورة هي اولى اسبـــاب عظمته . هو يرى

الكون مدهشاً ومخيفاً وحقا كالموت وحقاً كالحياة ، وهذه الحقيقة لا تفارقه ابداً وان فارقت معظم الناس فساروا على غير هدى وخبطوا في غياهب الضلال والعماية ، بل تظل هذه الحقيقة كل لحظة بين جنبيه ونصب عينيه ، كأنها مكتوبة بحروف من اللهب لا شك فيها ولا ريب . ها هي ! ها هي ! فاعرفوا هداكم الله ان هذه هي اولى صفات العظيم ، وهذا حده الجوهري وتعريفه ، وقد توجد هذه في الرجل الصغير فهي جديرة ان توجد في نفس كل انسان خلقه الله ، ولكنها من لوازم الرجل العظيم ولا يكون الرجل عظيماً الا بها .

مثل هذا الرجل هو ما نسميه رجلا اصلياً صافي الجوهر ، كريم العنصر ، فهو رسول مبعوث من الابدية المجهولة برسالة الينا . فقد نسميه شاعراً او نبياً او إلهاً ، وسواء هذا او ذاك او ذلك فقد نعلم ان قوله ليس بمأخوذ من رجل غيره ، ولكنه صادر من لباب حقائق الاشياء . نعم ، هو يرى باطن كل شيء لا يحجب عنه ذلك باطل الاصطلاحات وكاذب الاعتبارات والعادات والمعتقدات وسخيف الاوهام والآراء : وكيف وان الحقيقة لتسطع لعينه حتى يكاد يعشى لنورها ، ثم اذا نظرت الى كلمات العظيم شاعراً كان او فيلسوفاً او نبياً او فارساً او ملكاً ، الا تراها ضرباً من الوحي ؟ والرجل العظيم في نظري مخلوق من فؤاد الدنيا واحشاء الكون ، فهو جزء من الحقائق الجوهرية للاشياء ، وقد دل الله على وجوده بعدة آيات ، ارى ان احدثها واجدها هو الرجل العظيم الذي علمه الله العلم والحكمة فوجب علينا ان نصغي اليه قبل كل شيء ...

وعلى ذلك فلسنا نعد محمداً هذا قط رجلا كاذباً متصنعاً يتذرع بالحيل والوسائل الى بغية ، او يطمح الى درجة ملك او سلطان ، او غير ذلك من الحقائر والصغائر . وما الرسالة التي أداها الا حق صراح ، وما كلمته الا صوت صادق صادر من العالم المجهول . كلا ، ما محمد بالكاذب ولا الملفق ، وانما هو قطعة من الحياة قد تفطر عنها قلب الطبيعة ، فاذا هي شهاب قد اضاء العالم

اجمع . ذلك امر الله ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ، وهذه حقيقة تدمغ كل باطل وتدحض حجة القوم الكافرين .

وَهَبْ لمحمد (عليه السلام) غلطات وهفوات – واي انسان لا يخطىء انما العصمة لله وحده – فانه ليس في طاقة أية هفوات او غلطات ان تزري بتلك الحقيقة الكبرى وهي انه رجل صادق ونبي مرسل .

وأرانا على العموم نجسم الهفوات ، ونجعل من الجزئيات حُجُباً تستر عنا الحقائق الكلية . الهفوات ! أيحسبُ الناس أنه يخلو منها إنسان ? إن اكبر الهفوات عندي أن يحسبَ المرءُ أنه بريء من الهفوات ! مــــا بال الناس لا يذكرون نبي الله داود ? ألم يرتكب داود أفظع الجرائم وأشنع الآثام ? الا ما أهــون امر الذنوب وأصغر خطر الاغلاط – الجزئيــات والقشور – إذا كان لبابها كريماً وسرها حراً شريفاً ، وكان في التوبة النصوح والندم الصادق ووخز الضمير ولذع الذاكرة أكبر مكفر للسيئات ومطهر لادران الروح من أدران الشوائب . أليست التوبة اكرم أعمال المرء قاطبة وأقــدس أفعاله ? إنما ألأم الذنب هو كما قلت ، حســبـــان المرء انه بريء من كل ذنب . وكل نفس هذا شأنها فهي في نظري مطلقة من الوفـــاء والمروءة ، بعيدة عن التقى والبر والحق – أو هي ميتة – أو إن تشأ فقل هي نقية نقاء الرمـــل الجاف الميت . وإني أحسب ان سيرة داود وتاريخـــه كما هو مدون في مزاميره ، لأصدق آية على ارتقــاء المرء في معارج المكرمــات ، وعلى حرب العقل والهوى ، حرباً طالما ينهزم فيها العقل هزيمة تضعضع جانبه وتتركه لقى مشفياً على الانقراض . ولكنها حرب بغير نهاية ، مشفوعة أبداً بالبكاء والتوبة ، واستنهاض العزم الصادق الذي لا يبرح يتجدد بعد كل هزيمة . يا ويل النفس الانسانية ما أشد خطبها بين ضعفها وقوة شهواتها ! أو ليست حيـــاة الانسان في هذه الدنيا سلسلة عثرات ? وهل في استطاعة المرء خلاف ذلك ? وهل يطيق في ظلمات هذه الحياة الا الاعتساف والتخبط ? فما ينهض من عثرة الا لأخرى ، وبين هذه وتلك نحيب وعبرات وشهيق وزفرات ، وانما

الأمر الهام هو أيظفر على هواه بعد كل هذه المجاهدات ؟ وانا لنصفح عن كثير من الجزئيات ، ما دام اللباب حقاً والصميم صحيحاً ، ومـا كانت الجزئيات وحدها لتعرّفنا حقيقة انسان .

●

كانت عرب الجاهلية أمة كريمة تسكن بلاداً كريمة ، وكأنما خلق الله البلاد وأهلها على تمام وفاق . فكان ثمة شبه قريب بين وعورة جبالها ووعورة اخلاقهم ، وبين جفاء منظرها وجفاء طباعهم ، وكان يلطّف من قسوة قلوبهم مزاج من اللين والدماثة ، كما كان يبسط من عبوس وجوه البلاد رياض خضراء وقيعان ذات أمواه وأكلاء . وكان الاعرابي صامتاً لا يتكلم الا فيما يعنيه ، إذ كان يسكن أرضاً قفراً يباباً خرساء تخالها بحراً من الرمـل يصطلي جمرة النهار طوله ، ويكافح بحرّ وجهه نفحات القر ليله .

رأت رجلاً اما إذا الشمس عارضت فيضحى واما بالعشي فيخصر

ولا احسب أناساً شأنهم الانفراد وسط البيد والقفـار ، يحادثون ظواهر الطبيعة ويناجون اسرارها ، الا أنهم يكونون اذكياء القلوب ، حداد الخواطر ، خفاف الحركة ، ثاقبي النظر ، وإذا صح ان الفرس هم فرنسيو المشرق فالعرب لا شك طليانه .

والحق أقول لقد كان أولئك العرب قوماً اقوياء النفوس ، كأن أخلاقهم سيول دفاقة ، لها من شدة حزمهم وقوة إرادتهم احصن سور وأمنع حاجز ، وهـذه وأبيكم أم الفضائل وذروة الشرف البـاذخ ، وقد كان احدهم يضيفه ألد اعدائه فيكرم مثواه وينحر له ، فاذا ازمع الرحيـل خلع عليه وحمّله وشيّعه ، ثم هو بعد كل ذلك لا يحجم ان يقاتله متى عادت به اليه الفرص . وكان العربي أغلب وقته صامتاً ، فاذا قال افصح .

ويمتاز العرب بحلاوة الشمائل ورقة الظرف ، وبألمعية القريحة وأريحيـة القلب ، وكان لهم قبل زمن محمد (عليه السلام) منافسات في الشعر يجرونها بسوق عكاظ في جنوب البلاد ، حيث كانت تقام اسواق التجارة ، فـاذا

.نتهت الأسواق تناشد الشعراء القصائد ابتغـاء جائزة تُجعل للاجود قريضاً والاحكم قافية ، فـكان الأعراب الجفاة ذوو الطباع الوحشية الوعرة يرتاحون لنغمات القصيـد ويجـدون لرناتها أي لذة ، فيتهافتـون على المنشد كالفراش ويتهالكون .

وأرى لهؤلاء العرب صفة واضحة فيهم ، واحسبهـا ثمرة الفضائل جميعاً والمحامد بحذافيرها ، ألا وهي التدين ، فانهم مذ كانوا مـا برحوا شديدي التمسك بدينهم كيفما كان ، وكانوا يعبدون الكواكب وكثيراً من الكائنات الطبيعية يرونها مظاهر للخـالق ودلائل على عظمته ، فهذا وان يك خطأ فليس من جميع وجوهه ، فان مصنوعات الله ما برحت بوجهٍ ما رموزاً له ودلائل عليه . ألسنا كما قدّمتُ نعتـدها مفخرة للشاعر وفضيلة ان يكون يدرك ما بالكائنات من أسرار الجمال والجلال او « أسرار الجمال الشعري » كما اصطلح الناس على تسميته ؟ وقد كان لهؤلاء العرب عدة أنبياء كلهم استاذ قبيلته ومرشدها حسبما يقضيه مبلغ علمه ورأيه ، ثم أليس لدينا من البراهين الساطعة ما يثبت لنا أي حكمة بليغة ورأي سديد واي تقوى واخلاص قد كان لهؤلاء البدو المفكرين ؟

والحجر الأسـود كان من اعم معبـودات العرب ولا يزال للآن بمكة في البناء المسمى « الكعبة » ، وقـد ذكر المؤرخ الروماني « سيسلاس » الكعبة فقال انها كانت في مدته اشرف معابد العالم طراً وأقدمها ، وذلك قبل الميلاد بخمسين عاماً . وقال المؤرخ « سلفستر دي ساسي » ان الحجر الأسود ربما كان من رجوم السموات ، فاذا صح ذلك فلا بد أن إنسـاناً قد بصر به ساقطاً من الجو ! والحجر موجود الآن إلى جانب البئر « زمزم » والكعبة مبنية فوقهما ، والبئر تعلمون منظرٌ حيثما كان سارٌ مفرح ينبجس من الحجر الاصم كالحياة من الموت ، فما بالكم بها إذا كانت تفيض :

بديمومة لا ظل في صحصحانها ولا ماء لكن قورها الدهر عوّم
ترى الآل فيها يلطم الآل مائجاً وبارحها المسموم للوجه ألطم

أظل إذا كافحتها وكأنني بوهاجها دون اللثام ملثم

وقد اشتُق لها اسمها زمزم من صوت تفجرها وهديرها ، والعرب تزعم أنها انبجست تحت أقدام هاجر واسماعيل فيضاً من الله وشفاء ، وقد قدسها العرب والحجر الاسود وشادوا عليها الكعبة منذ آلاف من السنين . وما أعجب هذه الكعبة وأعجب شأنها ، فهي في هذه الآونة قائمة على قواعدها ، وعليها الكسوة السوداء يبلغ ارتفاعها سبعاً وعشرين ذراعاً ، حولها دائرة مزدوجة من العمد ، وبها صفوف من المصابيح ، وبها نقوش وزخارف عجيبة ، وستوقد تلك المصابيح الليلة لتشرف تحت النجوم المشرقة ، فنعم اثر الماضي هي ونعم ميراث الغابر . هذه كعبة المسلمين ، ومن أقاصي المشرق الى أخريات المغرب ، ومن دلهي الى مراكش ، تتوجه أبصار العديد الجمهر من عباد الله المصلين شطرها ، وتهفو قلوبهم نحوها خمس مرات هذا اليوم وكل يوم . نعم ، هي والله من اجلّ مراكز المعمورة وأشرف أقطابها !

وإنما من شرف البئر زمزم وقدسية الحجر الاسود ، ومن حج القبائل الى ذياك المكان ، كان منشأ مدينة مكة . ولقد كانت هذه المدينة وقتاً ما ذات بال وشأن ، وان كانت الآن قد فقدت كثيراً من اهميتها . وموقعها من حيث هي مدينة سيء جداً ، اذ هي واقعة في بطن من الارض كثير الرمال ، وسط هضاب قفرة وتلال مجدبة ، على مسافة بعيدة من البحر ، ثم يمتار لها جميع ذخائرها من جهات اخرى ، حتى الخبز . ولكن الذي اضطر الى ايجاد هذه المدينة هو ان كثيراً من الحجيج كانوا يطلبون المأوى ، ثم أن اماكن الحج ما زالت من قديم الزمان تستدعي التجارة ، فأول يوم يلتقي فيه الحجيج تلتقي فيه كذلك التجار والباعة . والناس متى وجدوا انفسهم مجتمعين لغرض من الأغراض ، رأوا انه لا بأس عليهم ان يقضوا كل ما يعرض لهم من المنافع وان لم يكن في الحسبان ، لذلك صارت مكة سوق بلاد العرب باجمعها ، والمركز لكل ما كان من التجارة بين الهند وبين الشام ومصر بل وبين ايطاليا ، وقد

بلغ سكانها في حين من الاحيان مائة الف نسمة بين بائعين ومشترين وموردين لبضائع الشرق والغرب وباعة المأكولات والغلال ، وكانت حكومتها ضرباً من الجمهورية الارستقراطية عليها صبغة دينية ، وذلك انهم كانوا ينتخبون لها عشرة رجال من قبيلة عظمى ، فيكون هؤلاء حكام مكة وحراس الكعبة .

وكانت الكعبة لقريش في عهد محمد ، واسرة محمد من قبيلة قريش ، وكان سائر الامة مبدداً في انحاء تلك الرمال قبائل تفصلها بين الواحدة والاخرى البيد والقفار ، وعلى كل قبيلة امير او امراء ، وربما كان الامير راعياً او ناقل امتعة ، ويكون في الغالب غازياً . وكانت الحرب لا تخمد بين بعض هذه القبائل وبعضها ، ولم يك يؤلف بينهم حلف علني الا التقاءهم بالكعبة ، حيث كان يجمعهم على اختلاف وثنياتهم مذهب واحد ، والا رابطة الدم واللغة .

وعلى هذه الطريقة عاش العرب دهوراً طوالاً خاملي الذكر غامضي الشأن ، اناساً ذوي مناقب جليلة وصفات كبيرة ، ينتظرون من حيث لا يشعرون اليوم الذي يشاد فيه بذكرهم ، ويطير في الآفاق صيتهم ، ويرتفع الى عنان السماء صوتهم ، وما ذلك ببعيد ، وكأنما كانت وثنياتهم قد وصلت الى طور الاضمحلال وآذنت بالسقوط ، وقد حدثت بينهم دواعي اختلاط وفوران ، وكان قد بلغهم على مدى القرون غوامض انباء عن اكبر حادثة وقعت على وجه البسيطة ، اعني حياة المسيح ووفاته ، وهي التي احدثت انقلاباً هائلاً في جميع سكان العالم ، فلم تعدم هذه الانباء تأثيرها من الفوران في أحشاء الامة العربية .

وكان بين هؤلاء العرب التي تلك حالهم ، ان ولد الرجل محمد (عليه السلام) عام ٥٨٠ ميلادية ، وكان من اسرة هاشم من قبيلة قريش ، وقد مات ابوه عقب مولده ، ولما بلغ عمره ستة اعوام توفيت امه ، وكان لها شهرة بالجمال والفضل والعقل ، فقام عليه جده شيخ كان قد ناهز المائة من عمره ، وكان صالحاً باراً وكان ابنه عبدالله أحب أولاده اليه ، فأبصرت عينه الهرمة في محمد صورة عبدالله فاحب اليتيم الصغير بملء قلبه ، وكان يقول : « ينبغي ان يحسن القيام على ذلك الصبي الجميل الذي قد فاق سائر الاسرة والقبيلة حسناً وفضلاً »

ولما حضرت الشيخ الوفاة والغلام لم يتجاوز العامين ، عهد به الى ابي طالب أكبر اعمامه ، رأس الاسرة بعده ، فرباه عمه ، وكان رجلاً عاقلاً كما يشهد بذلك كل دليل على احسن نظام عربي .

ولما شب محمد وترعرع ، صار يصحب عمه في أسفار تجارية وما أشبه ، وفي الثامنة عشرة من عمره نراه فارساً مقاتلاً يتبع عمه في الحروب ، غير أن أهم أسفاره ربما كان ذاك الذي حدث قبل هذا التاريخ ببضع سنين ، رحلة الى مشارف الشام ، اذ وجد الفتى نفسه هنالك في عالم جديد ازاء مسألة أجنبية عظيمة الأهمية جداً في نظره ، أعني الديانة المسيحية . واني لست أدري ماذا اقول عن ذلك الراهب سرجياس (بحيرا) الذي يزعم أن أبا طالب ومحمداً سكنا معه في دار ، ولا ماذا عساه يتعلمه غلام في هذه السن الصغيرة من أي راهب ما ، فان محمداً لم يكن يتجاوز اذ ذاك الرابعة عشرة ، ولم يكن يعرف الا لغته ، ولا شك أن كثيراً من أحوال الشام ومشاهدها لم يك في نظره الا خليطاً مشوشاً من أشياء ينكرها ولا يفهمها . ولكن الغلام كان له عينان ثاقبتان ، ولا بد من ان يكون قد انطبع على لوح فؤاده أمور وشؤون ، فأقامت في ثنايا ضميره ولو غير مفهومة ، ريثما ينضجها له كر الغداة ومر العشي ، وتحلها له يد الزمن يوماً ما ، فتخرج منها آراء وعقائد ونظرات نافذات ، فلعل هذه الرحلة الشامية كانت لمحمد أوائل خير كثير وفوائد جمة .

ثم لا ننسى شيئاً آخر وهو انه لم يتلق دروساً على أستاذ ابداً ، وكانت صناعة الخط حديثة العهد اذ ذاك في بلاد العرب ، ويظهر لي أن الحقيقة هي أن محمداً لم يكن يعرف الخط والقراءة ، وكل ما تعلم هو عيشة الصحراء وأحوالها ، وكل ما وفق الى معرفته هو ما أمكنه أن يشاهد بعينيه ويتلقى بفؤاده من هذا الكون العديم النهاية ، وعجيب وأيم الله أمية محمد ! نعم ، انه لم يعرف من العالم ولا من علومه ، الا ما تيسر له أن يبصره بنفسه ، او يصل الى سمعه في ظلمات صحراء العرب ، ولم يضره ولم يزر به انه لم

يعرف علوم العالم ، لا قديمها ولا حديثها ، لأنه كان بنفسه غنياً عن كل ذلك . ولم يقتبس محمد من نور أي انسان آخر ، ولم يغـترف من مناهل غيره ، ولم يك في جميع أشباهـــه من الانبياء والعظماء ، اولئك الذين أشبههم بالمصابيح الهادية في ظلمـات الدهور ، من كان بـين محمد وبينـه أدنى صلة ، وانما نشأ وعاش وحده في أحشاء الصحراء ، ونمـا هنالك وحده ، بين الطبيعـة وبين أفكاره !

ولوحظ عليه منذ فتائه أنه كان شاباً مفكراً ، وقد سماه رفقاؤه الأمين ، أي رجل الصدق والوفاء ، الصدق في أفعاله وأقواله وأفـكاره ، وقد لاحظوا أن ما من كلمة تخرج من فيـه الا وفيها حكمة بليغـة . واني لأعرف عنه أنه كان كثير الصمت ، يسكت حيث لا موجب للكلام ، فاذا نطق فـما شئت من لب وفضل واخلاص وحكمة ، لا يتناول غرضاً فيتركه إلا وقـد أنار شبهته ، وكشف ظلمته ، وأبان حجته ، واستثار دفينته ، وهكذا يكون الكلام والا فلا .

وقد رأيناه طول حياته رجلاً راسخ المبـدأ ، صارم العزم ، بعيد الهم ، كريماً براً رؤوفاً تقياً فاضلاً حراً ، رجلاً شديـــد الجد مخلصاً ، وهو مع ذلك سهل الجانب لين العريكة ، جم البشر والطلاقة ، حميد العشرة حـلو الايناس ، بل ربما مازح وداعب . وكان على العموم تضيء وجهه ابتسامـــة مشرقة من فؤاد صادق ، لان من النـاس من تكون ابتسامته كاذبة ككذب أعماله واحواله ، هؤلاء لا يستطيعون أن يبتسموا . وكان محمد جميل الوجه ، وضيء الطلعة ، حسن القامـة ، زاهي اللون ، له عينـان سوداوان تتلألآن ، واني لأحب في جبينـه ذلك العرق الذي كان ينتفـخ ويسود في حال غضبه (كالعرق المقوس الوارد في قصة القفازة الحمراء لوالتر سكوت) ، وكان هذا العرق خصيصة في بني هاشم ، ولكنه كان أبين في محمـد وأظهر . نعم ، لقد كان هذا الرجل حاد الطبع ناري المزاج ، ولكنه كان عادلاً صادق النية ، كان ذكي اللب شهم الفؤاد

لوذعيا كأنما بين جنبيه مصابيح كل ليل بهيم

ممتلئاً ناراً ونوراً ، رجلاً عظيماً بفطرته ، لم تثقفه مدرسة ولا هذبه معلم ، وهو غني عن ذلك كالشوكة استغنت عن التنقيح ، فادى عمله في الحياة وحده في اعماق الصحراء .

وما الذ وما اوضح قصته مع خديجة ، وكيف انه كان اولا يسافر في تجارات لها الى اسواق الشام ، وكيف كان ينهج في ذلك اقوم مناهج الحزم والامانة ، وكيف جعل شكرها له يزداد وحبها ينمو ، ولما زوجت منه كانت في الاربعين ، وكان هو لم يتجاوز الخمسة والعشرين ، وكان لا يزال عليها مسحة من ملاحة . ولقد عاش مع زوجه هذه على اتم وفاق وإلفة وصفاء وغبطة ، يخلص لها الحب وحدها ، ومما يبطل دعوى القائلين ان محمداً لم يكن صادقاً في رسالته ، بل كان ملفقاً مزوراً انه قضى عنفوان شبابه وحرارة صباه في تلك العيشة الهادئة المطمئنة ، لم يحاول اثناءها احداث ضجة ولا دوي ، مما يكون وراءه ذكر وشهرة وجاه وسلطة ، ولما يك الا بعد الاربعين ان تحدث برسالة سماوية . ومن هذا التاريخ تبتدىء حوادثه وشواذه ، حقيقة كانت او مختلقة ، وفي هذا التاريخ توفيت خديجة . نعم ، لقد كان حتى ذاك الوقت يقنع بالعيش الهادىء الساكن ، وكان حسبه من الذكر والشهرة حسن آراء الجيران فيه ، وجميل ظنونهم به ، ولم يك إلا بعد ان ذهب الشباب وأقبل المشيب أن فار بصدره ذلك البركان الذي كان هاجعاً ، وثار يريد امراً جليلاً وشأناً عظيماً .

ويزعم المتعصبون والملحدون ان محمداً لم يكن يريد بقيامه الا الشهرة الشخصية ومفاخر الجاه والسلطان . كلا وايم الله ، لقد كان في فؤاد ذلك الرجل الكبير ، ابن القفار والفلوات ، المتوقد المقلتين ، العظيم النفس ، المملوء رحمة وخيراً وحناناً وبراً ، وحكمة وحجى واربة ونهى ، افكار غير الطمع الدنيوي ، ونوايا خلاف طلب السلطة والجاه ... وكيف وتلك نفس صامتة كبيرة ، ورجل من الذين لا يمكنهم الا ان يكونوا مخلصين جادين . فبينما ترى آخرين يرضون بالاصطلاحات الكاذبة ويسيرون طبق الاعتبارات الباطلة ، إذ ترى

محمداً لم يرض أن يلتفع بمـألوف الاكاذيب ويتوشح بتتبع الأباطيل ؛ لقد كان منفرداً بنفسه العظيمة وبحقائق الأمور والكائنات .

لقد كان سر الوجود يسطع لعينيه كما قلت بأهواله ومخـاوفه وروائقه ومباهره ، لم يك هنالك من الاباطيل ما يحجب ذلك عنه ، فكأن لسان حال ذلك السر الهائل يناجيه : « هأنـذا » فمثل هذا الاخـلاص لا يخلو من معنى إلهي مقدس، وما كلمة مثل هذا الرجل إلا صوت خارج من صميم قلب الطبيعة، فاذا تكلم فكل الآذان برغمها صاغية وكل القلوب واعية ، وكل كلام مـا عدا ذلك هباء وكل قول جفـاء ، وما زال منذ الاعوام الطوال ، منذ أيام رحله واسفاره ، يجول بخاطره آلاف من الافكار : ماذا انا ؟ وما ذلك الشيء العديم النهاية الذي اعيش فيه والذي يسميه الناس كوناً ؟ ومـا هي الحياة ؟ وما هو الموت ؟ وماذا اعتقد ؟ وماذا افعل ؟ فهل اجابته عن ذلك صخور جبل حراء ، أو شماريخ طود الطور ، او تلك القفار والفلوات ؟ كلا ولا قبة الفلك الدوار ، واختلاف الليل والنهـار ، ولا النجوم الزاهرة والانواء الماطرة . لم يجبه لا هذا ولا ذاك ، وما الجواب عن ذلك إلا روح الرجل والا ما اودع الله فيه من سره !

وهذا ما ينبغي لكل انسان ان يسأل عنه نفسه ، فقد أحس ذلك الرجل القفري ان هـذه هي كبرى المسائل وأهم الامور ، وكل شيء عديم الاهمية في جانبها ، وكان اذا بحث عن الجواب في فرق اليونان الجدلية ، او في روايات اليهود المبهمة ، او نظام وثنية العرب الفـاسد ، لم يجده . وقد قلت ان اهم خصائص البطل ، واول صفاته وآخرها ، هي ان ينظر من خلال الظواهر الى البواطن ، فاما العادات والاستعمالات والاعتبارات والاصطلاحات ، فينبذها جيدة كانت او رديئة . وكان يقول في نفسه : « هذه الاوثان التي يعبدها القوم لا بد من ان يكون وراءها ودونها شيء ما هي الا رمز له وإشارة اليه ، وإلا فهي باطل وزور ، وقطع من الخشب لا تضير ولا تنفع ! »

وما لهذا الرجل والاصنام ، وأنى تؤثر في مثله اوثان ولو رصعت بالنجوم

لا بالذهب ، ولو عبدها الجحاجح من عدنان والاقيال من حمير ، اي خير له في هذه ولو عبدها الناس كافة ؟ انه في واد وهم في واد ، هم يعمهون في ضلالهم وهو ماثل بين يدي الطبيعة قد سطعت لعينيه الحقيقة الهائلة ، فاما ان يجيبها والا فقد حبط سعيه وكان من الخاسرين. فلتجبها يا محمد ! أجب، لا بد من ان توجد الجواب ، أيزعم الكاذبون انه الطمع وحب الدنيا هو الذي اقام محمداً وأثاره ؟ حمق وايم الله ، وسخافة وهوس ! اي فائدة لمثل هذا الرجل في جميع بلاد العرب ، وفي تاج قيصر وصولجان كسرى ، وجميع ما بالارض من تيجان وصوالجة ، وأين تصير الممالك والتيجان والدول جميعها بعد حين من الدهر ؟ أفي مشيخة مكة ، وقضيب مفضض الطرف ، او في ملك كسرى وتاج ذهبي الذؤابة منجاة للمرء ومظفرة ؟ كلا ، اذن فلنضرب صفحاً عن مذهب الجائرين القائل ان محمداً كاذب ونعد موافقتهم عاراً وسبة ، وسخافة وحمقاً ، فلنربأ بنفوسنا عنه ولنترفع !..

وكان من شأن محمد ان يعتزل الناس شهر رمضان ، فينقطع الى السكون والوحدة دأب العرب وعادتهم ، ونعمت العادة ما أجل وانفع ، ولاسيما الرجل كمحمد ، لقد كان يخلو الى نفسه فيناجي ضميره صامتاً بين الجبال الصامتة ، متفتحاً صدره لاصوات الكون الغامضة الخفية . اجل ، حبذا تلك عادة ونعمت ، فلما كان في الاربعين من عمره وقد خلا الى نفسه في غار بجبل «حراء» قرب مكة شهر رمضان ، ليفكر في تلك المسائل الكبرى ، اذا هو قد خرج الى خديجة ذات يوم ، وكان قد استصحبها ذلك العام وأنزلها قريباً من مكان خلوته ، فقال لها انه بفضل الله قد استجلى غامض السر واستثار كامن الأمر ، وانه قد انارت الشبهة وانجلى الشك وبرح الخفاء ، وان جميع هذه الاصنام محال ، وليست الا اخشاباً حقيرة ، وان لا إله الا الله وحده لا شريك له ، فهو الحق وكل ما خلاه باطل ، خلقنا ويرزقنا وما نحن وسائر الخلق والكائنات الا ظل له وستار يحجب النور الابدي والرونق السرمدي ، الله اكبر ولله الحمد ، ثم الاسلام وهو ان نسلم الامر لله ، ونذعن له، ونسكن اليه ، ونتوكل عليه ، وان

القوة كل القوة هي في الاستنامة لحكمه ، والخضوع لحكمته ، والرضا بقسمته ، أية كانت في هذه الدنيا وفي الآخرة ، ومهما يصبنا به الله ولو كان الموت الزؤام فلنلقه بوجـه مبسوط ونفس مغتبطة راضية ، ونعلم انه الخير وأن لا خير إلا هو .

ولقد قال شاعر الالمان واعظم عظمائهم « غوته » : « اذا كان ذلك هو الاسلام فكلنا اذن مسلمون ، نعم كل من كان فاضلاً شريف الخلق فهو مسلم ، وقدما قيل ان منتهى العقل والحكمة ليس في مجرد الاذعـان للضرورة ، فان الضرورة تخضع المرء برغم انفـه ولا فضل فيما يأتيه الانسان مكرهاً ، بل في اليقين بان الضرورة الاليمة المرة هي خير ما يقع للانسان وافضل ما يناله ، وان لله في ذلك حكمة تلطف عن الافهام وتدق عن الاذهـان ، وانه من الافن والسخف ان يجعل الانسان من دماغه الضئيل ميزاناً لذلك العالم واحواله ، بل عليه ان يعتقد ان للكون قانوناً عادلاً وان غاب عن ادراكه ، وان الخير هو اساس الكون ، والصلاح روح الوجود ، والنفع لباب الحيـاة ، نعم عليه ان يعرف ذلك ويعتقده ويتبعه في سكوت وتقوى » .

اقول : وما زالت هذه الخطة المثلى والمـذهب الاشرف الاطهر ، وما زال الرجل مصيباً وظافراً ، وحراً وكريمـاً ، وسائراً على المنهج الاقوم ، وسالكاً سبيل السعادة ، ما دام معتصماً بحبل الله متمسكاً بقـانون الطبيعة الاكبر الامكن ، غير مبـال بالقوانين السطحية والظواهر الوقتية وحسابات الربح والخسارة . نعم ، هو ظافر اذا اتبـع ذلك القانون الكبير الجوهري – قطب رحى الكون ومحور الدهر – وليس بظافر اذا فعل غير ذلك ، وحقاً ان اول وسيلة تؤدي الى اتباع هذا القانون هو الاعتقـاد بوجوده ، ثم بأنه صالح بل لا شيء غيره صالح ! وهـذا يا اخواني هو روح الاسلام ، وهذا هو ايضاً روح النصرانية ، والاسلام لو تفقهون ضرب من النصرانية ، والاسلام والنصرانية يأمراننـا ان نتوكل على الله قبل كل شيء ، وان نفطم النفس عن الشهوات ، وننهي القلب عن الهوى ، وان لا نجمح في عنـان المنى ، وان نصبر على البث

والاسى ، وان نعرف اننّا لا نعرف شيئاً ، وان نرضى من الله كل مـا قسم ، ونعدهــا يداً بيضاء ونعمة غراء ، ونقول الحمد لله على كل حال ، وتبارك الله ذو الفضل والجــلال ، ونقول : « انا بقسمة الله راضون ولو كان ما قسم لنا المنون ».

فمن فضائل الاسلام تضحية النفس في سبيل الله ، وهذا اشرف ما نزل من السماء على بني الارض . نعم ، هو نور الله قد سطــع في روح ذلك الرجل فأنار ظلماتها ، هو ضياء باهر كشف تلك الظلمات التي كانت تؤذن بالخسران والهلاك ، وقد سماه محمد (عليه السلام) وحياً و « جبريل » ، وأينا يستطيع ان يحدث له اسماً ، ألم يجيء في الانجيل ان وحي الله يهبنا الفهم والادراك ، ولا شك ان العلم والنفاذ الى صميم الامور وجواهر الاشياء لسر من اغمض الاسرار لا يكاد المنطقيون يلمسون منه الا قشوره . وقد قال نوفاليس : « أليس الايمـان هو المعجزة الحقــة الدالة على الله ؟ » فشعور محمد اذ اشتعلت روحه بلهيب هذه الحقيقة الســـاطعة ، بأن الحقيقة المذكورة هي اهم ما يجب على الناس علمه ، لم يك الا امراً بديهيا ، وكون الله قد انعم عليه بكشفها له ونجـاه من الهلاك والظلمة ، وكونه قد اصبح مضطراً الى اظهارها للعالم أجمع ، هذا كله هو معنى كلمة « محمد رسول الله » وهذا هو الصدق الجلي والحق المبين !

ويخيل الينـــا آن الصالحة خديجة أصغت اليه في دهشة وشك ، ثم آمنت وقالت : «اي وربي انه لحق!» ونتوهم ان محمداً شكر لها ذلك الصنيـع ، ورأى في ايمانها بكلمته المخلصة المقذوفة من بركان صدره جميلا يفوق كل ما اسدت اليه من قبل ، فانه ليس أروح لنفس المرء ولا اثلج لحشاه من ان يجد له شريكاً في اعتقاده ، ولقد قال نوفاليس : « ما رأيت شيئــاً قط آكد ليقيني واوثق لاعتقادي من انضمام انسان اخر الي في رأيي » نعم انه لصنيــــع أغر ونعمة وفيرة ، وكذلك ما انفك محمد يذكر خديجــة حتى لقي ربه ، حتى ان عائشة –زوجه الصغيرة المحبوبة تلك التي اشتهرت بين المسلمين بجميع المناقب والفضائل طول حياتها – هذه السيدة البارعة الجمال والفطنة سألته ذات يوم ، ألست الآن

أفضل من خديجة ؟ لقد كانت ارملة مسنة قد ذهب جمالها وأراك تحبني اكثر مما كنت تحبها . » فأجاب محمد : « كلا والله لست افضل منها وكيف وهي التي آمنت بي والكل كافر ومنكر ، ولم يك لي في هذا العالم الا صديق واحد ، وهذا الصديق هي » وآمن به مولاه زيد (بن حارثة) كذلك وعلي ، وهؤلاء الثلاثة اول من آمن به .

وجعل يذكر رسالته لهذا ولذاك ، فما كان يصادف الا جموداً وسخرية ، حتى انه لم يؤمن به في خلال ثلاثة اعوام الا ثلاثة عشر رجلاً ، وذلك منتهى البطء وبئس التشجيع ، ولكنه المنتظر في مثل هذه الحال ، وبعد هذه السنين الثلاث آدب مأدبة لأربعين من قرابته ، ثم قام بينهم خطيباً فذكر دعوته ، وانه يريد ان يذيعها في سائر انحاء الكون، وانها المسألة الكبرى بل المسألة الوحيدة ، فأيهم يمد اليه يده ويأخذ بناصره ؟ وبينما القوم صامتون حيرة ودهشة وثب علي ، وكان غلاماً في السادسة عشرة ، وكان قد غاظه سكوت الجماعة فصاح في اسدّ لهجة انه ذاك النصير والظهير . ولا يُحتمل ان القوم كانوا منابذين محمداً ومعادينه وكلهم قرابته ، وفيهم ابو طالب عم محمد وابو علي ، ولكن رؤية رجل كهل امي يعينه غلام في السادسة عشرة ، يقومان في وجه العالم بأجمعه ، كانت مما يدعو الى العجب المضحك ، فانفض القوم ضاحكين !.. ولكن الامر لم يك بالمضحك ، بل كان نهاية في الجد والخطر ! اما علي فلا يسعنا الا ان نحبه ونتعشقه ، فانه فتى شريف القدر كبير النفس ، يفيض وجدانه رحمة وبرا ، ويتلظى فؤاده نجدة وحماسة ، وكان اشجع من ليث ، ولكنها شجاعة ممزوجة برقة ولطف ورأفة وحنان ، جدير بها فرسان القرون الوسطى ، وقد قتل بالكوفة غيلة وانما جنى ذلك على نفسه بشدة عدله حتى حسب كل انسان عادلا مثله ، وقال قبل موته حينما أومر في قاتله : « إن أعش فالامر اليّ وإن أمت فالأمر لكم ، فان آثرتم ان تقتصوا فضربة بضربة ، وان تعفوا اقرب الى التقوى » !

وكان في عمل محمد هذا اساءة ولا شك الى قريش حراس الكعبة

وخدمة الاصنـــام ، وانضم اليه منهم رجلان او ثلاثة اولو بأس ونفوذ ، وسرى أمر محمد ببطء ولكنه سريان على كل حال ، وكان عمله بالطبع سيء الوقع لدى كل انسان ، اذ جعلوا يقولون : « من هذا الذي يزعم انه أعقل منا جميعاً والذي يعنفنا ويرمينا بالحمق وعبادة الخشب ! » وأشار عليه أبو طالب ان يكتم أمره ويؤمن به وحده ، وان يكون له من نفسه ما يشغله عن العالم ، وأن لا يسخط القوم ويثير غضبهم عليــه فيخطر بذلك حياته ، فأجابه محمــد : « والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على ان أترك هذا الأمر حتى يُظهره الله او أهلك فيــه ما تركته ! » كلا ، فان في هذه الحقيقة التي جاء بها لشيئاً من عنصر الطبيعة ذاتها لا تفضله الشمس ولا القمر ، ولا أي مصنوعات الطبيعة ، ولا بد لتلك الحقيقة من أن تظهر برغم الشمس والقمر ، ما دام قــد أراد ان تظهر ، وبرغم قريش جميعها ، وبكره سائر الخلائق والكائنات . نعم لا بد أن تظهر ولا يسعها الا أن تظهر ، بذلك أجاب محمد ، ويقال أنه اغرورقت عيناه : لقد أحس من عمه البر والشفقة ، وأدرك وعورة الحال ، وعلم أنه امر ليس بالهين اللين ، ولكنها أمر صعب المراس مر المذاق !

واستمر يؤدي الرسالة الى كل من أصغى اليه وينشر مذهبه بين الحجيج مدة اقامتهم بمكة ، ويستميل الاتباع هنا وهنالك ، وهو يلقى أثناء كل ذلك منابذة ومناوأة ، ومناصبة بالعداوة ومجاهرة ، وشراً بادياً وكامناً ، وكانت قرابته تحميه وتدافع عنه ولكنه عزم هو وأتباعــه على الهجرة الى الحبشة ، فوقع خبر ذلك العزم من قريش أسوأ موقع وضاعف حنقهم عليه ، فنصبوا له الاشراك وبثوا الحبائل وأقسموا بالآلهة ليقتلن محمداً بأيديهم ، وكانت خديجة قد توفيت ، وتوفي ابو طالب ، وتعلمون ، أصلحكم الله ، أن محمداً ليس بحاجة الى ان نرثي له ولحــاله النكراء اذ ذاك ومقامه الضنك وموقفــه الحرج ، ولكن اعرفوا معي ان حاله اذ ذاك من الشــــدة والبلاء كما لم يرَ إنسان قط ، فلقد كان يختبىء في الكهوف، ويفر متنكراً الى هذا المــكان والى

ذاك ، لا مأوى ولا مجير ولا ناصر ، تتهدده الحتوف وتتوعده الهلكات ، وتفغر له أفواهها المنايا ، وكان الأمر يتوقف أحياناً على أدنى صغيرة — كاجفال فرس من افراس اتباع محمد — فلو حدث ذلك لضاع كل شيء ولكن امر محمد — ذلك الأمر العظيم — ما كان لينتهي على مثل تلك الحال .

فلما كان العام الثالث عشر من رسالته — وقد وجد أعداءه متألبين عليه جميعاً ، وكانوا اربعين رجلاً كل من قبيلة ، ائتمروا به ليقتلوه ، وألفى المقام بمكة مستحيلاً — هاجر الى يثرب حيث التف به الأنصار والبلدة تسمى الآن المدينة أي مدينة النبي ، وهي من مكة على ٢٠٠ ميل تقوم وسط صخور وقفار ، ومن هذه الهجرة يبتدىء التاريخ في المشرق ، والسنـــة الاولى من الهجرة توافق ٦٢٢ ميلادية ، وهي السنة الخامسة والخمسون من عمر محمد ، فترون أنه كان قد أصبح اذ ذاك شيخاً كبيراً ، وكان أصحابه يموتون واحداً بعد واحد ويخلون أمامه مسلكاً وعراً ، وسبيلاً قفراً وخطة نكراء موحشة ، فاذا هو لم يجد من ذات نفسه مشجعاً ومحركاً ، ويفجر بعزمه ينبوع أمل بين جنبيه ، فهيهات أن يجد بارقات الأمل فيما يحدق به من عوابس الخطوب ويحيط به من كالحات المحن والملمات ، وهكذا شأن كل انسان في مثل هذه الأحوال . وكانت نية محمد حتى الآن أن ينشر دينه بالحكمة والموعظة الحسنة فقط ، فلما وجد أن القوم الظالمين لم يكتفوا برفض رسالته السماوية وعدم الاصغاء الى صوت ضميره وصيحة لبـه ، حتى أرادوا أن يسكتوه فلا ينطق بالرسالة — عزم ابن الصحراء على أن يدافع عن نفسه دفاع رجل ، ثم دفاع عربي ، ولسان حاله يقول : « واما وقد ابت قريش الا الحرب فلينظروا اي فتيان هيجاء نحن ! » وحقـاً رأى فـان اولئـك القوم أغلقـوا آذانهم عن كلمة الحق وشريعـة الصدق ، وأبوا الا تمادياً في ضـلالهم يستبيحون الحريم ويهتكون الحرمات ويسلبون وينهبون ويقتـلون النفس التي حرم الله قتلهـا ، ويأتون كل اثم ومنكر ، وقد جاءهم محمد من طريق الرفق والأناة فأبوا الا عتواً وطغياناً ، فليجعل الامر اذن الى الحســـام المهند والوشيج المقوم ، والى كل مسرودة

حصداء وسابخة جرداء ! وكذلك قضى محمد بقية عمره وهي عشر سنين أخرى في حرب وجهاد لم يسترح غمضة عين ولا مدر فواق ، وكانت النتيجة ما تعلمون .

ولقد قيل كثيراً في شأن نشر محمد دينه بالسيف ، فاذا جعل الناس ذلك دليلاً على كذبه ، فشد ما أخطأوا وجاروا ، فهم يقولون ما كان الدين لينتشر لولا السيف ، ولكن ما هو الذي اوجد السيف ? هو قوة ذلك الدين ، وأنه حق . والرأي الجديد اول ما ينشأ يكون في رأس رجل واحد ، فالذي يعتقده هو فرد – فرد ضد العالم اجمع ، فاذا تناول هذا الفرد سيفاً وقام في وجه الدنيا فقلما والله يضيع . وأرى على العموم ان الحق ينشر نفسه بأية طريقة حسبما تقتضيه الحال ، أو لم تروا أن النصرانية كانت لا تأنف أن تستخدم السيف احياناً ، وحسبكم ما فعل شارلمان بقبائل السكسون ، وأنا لا أحفل أكان انتشار الحق بالسيف أم باللسان أم بأية آلة اخرى ، فلندع الحقائق تنشر سلطانها بالخطابة او بالصحافة او بالنار ، لندعها تكافح وتجاهد بأيديها وأرجلها وأظافرها فانها لن تهزم الا ما كان يستحق ان يهزم ، وليس في طاقتها قط ان تفني ما هو خير منها ، بل ما هو أحط وادنى فانها حرب لا حَكَم فيها الا الطبيعة ذاتها ، ونعم الحكم ما أعدل وما اقسط ، وما كان اعمق جذراً في الحق وأذهب اعراقاً في الطبيعة ، فذلك هو الذي ترونه بعد الهرج والمرج والضوضاء والجلبة نامياً زاكياً وحده .

أقول الطبيعة اعدل حكم ، بلى ما اعدل وما اعقل وما ارحم وما احلم ، انك تأخذ حبوب القمح لتجعلها في بطن الأرض ، وربما كانت هذه الحبوب مخلوطة بقشور وتبن وقمامة وتراب وسائر اصناف الأقذاء ، ولكن لا بأس عليك من ذلك ، والق الحبوب بجميع ما يخالطها من القذى في جوف الأرض العادلة البارة فانها لا تعطيك إلا قمحاً خالصاً نقياً ، فاما القذى فانها تبلعه في سكون وتدفنه ، ولا تذكر عنه كلمة ، وما هي الا برهة

حتى ترى القمح زاكياً يهتز كأنه سبائك الذهب الابريز ، والارض الكريمة قد طوت كشحاً على الاقذاء وأغضت ، بل انها حولتها كذلك الى اشياء نافعة ، ولم تشك منها شجواً ولا نصباً . وهكذا الطبيعة في جميع شؤونها ، فهي حق لا باطل ، وهي عظيمة وعادلة ورحيمة حنون ، وهي لا تشترط في الشيء إلا أن يكون صادق اللباب حر الصميم ، فاذا كان كذلك حمته وحرسته ، او كان غير ذلك لم تحمه ولم تحرسه ، فترى لكل شيء تحميه الطبيعة روحاً من الحق ، أليس شأن حبوب القمح هذه والطبيعة هو ، وا أسفاه ، شأن كل حقيقة كبرى جاءت الى هذه الدنيا او تجيء فيما بعد ؟ أعني ان الحقيقة مزيج من حق وباطل ، نور في ظلام ، وتجيئنا الحقائق في أثواب من القضايا المنطقية ونظريات علمية من الكائنات ، لا يمكن ان تكون تامة صحيحة صائبة ، ثم لا بد من ان يجيء يوم يظهر فيه نقصها وخطأها وجوهرها فتموت وتذهب ، نعم يموت ويذهب جسم كل حقيقة ، ولكن الروح يبقى ابداً ، ويتخذ ثوباً اطهر وبدناً اشرف ، وما يزال يتنقل من الاثواب والابدان ، من حسن الى احسن وجيد إلى اجود ، سنة الطبيعة التي لا تتبدل . نعم ان جوهر الحقيقة الكريم حي لا يموت ، وإنما النقطة الهامة والامر الوحيد الذي يعرض في محكمة الطبيعة ومجلس قضائها هو هل هذا الروح حق وصوت من اعماق الطبيعة ؟ وليس بهام عند الطبيعة ما نسميه نقاء الشيء او عدم نقائه وليس هو بالسؤال النهائي ، ليس الامر الهام عند الطبيعة حينما تقدم اليها أنت لتصدر حكمها فيك هو أفيك اقذار واكدار ام لا ، وإنما هو أفيك جوهر حق وروح صدق أم لا ، أو بعبارة تشبيهية ليس السؤال الهام عند الطبيعة هو أفيك قشور ام لا بل أفيك قمح ؟ أيقول بعض الناس انه نقي ، اني اقول له : « نعم نقي ، نقي جداً ولكنك قشر — ولكنك باطل واكذوبة وزور وثوب بلا روح ، ومجرد اصطلاح وعادة ، وما امتد بينك وبين سر الكون وقلب الوجود سبب ولا صلة ، والواقع أنك لا نقي ولا غير نقي ، وإنما انت لا شيء والطبيعة لا تعرفك

وإنها منك براء . »

نحن سمينا الاسلام ضرباً من النصرانيـــة ، ولو نظرنا إلى ما كان من سرعته الى القلوب وشدة امتزاجه بالنفوس ، واختـلاطه بالدماء في العروق ، لأيقنا انه كان خيراً من تلك النصرانية التي كانت اذ ذاك في الشـام واليونان وسائر تلك الأقطار والبلدان ، تلك النصرانية التي كانت تصدع الرأس بضوضائها الكاذبة وتترك القلب ببطلانها قفراً ميتاً ! على انه قد كان فيها عنصر من الحق ولكنه ضئيل جداً ، وبفضله فقط آمن الناس بها ، وحقاً انها كانت ضرباً كاذباً من النصرانية كالدعي بين الأصلاء ، ولكنها ضرب حي على كل حال ذو حياة قلبية وليست مجرد قضايا قفرة ميتة .

ونظر محمد من وراء اصنـــام العرب الكاذبة ، ومن وراء مذاهب اليونان واليهود ورواياتهم وبراهينهم ومزاعمهم وقضاياهم — نظر ابن القفار والصحارى بقلبه البصير الصادق وعينـــه المتوقدة الجلية إلى لبـــاب الامر وصميمه ، فقال في نفسه : الوثنية باطل . وهذه الاصنام التي تصقلونها بالزيت والدهن فيقع عليها الذباب ، أخشاب لا تضر ولا تنفع ، وهي منكر وفظيع وكفر لو تعلمون ، انما الحق ان لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، خلقنا وبيـــده حياتكم وموتكم ، وهو أرأف بكم منكم ، وما اصابكم من شيء فهو خير لكم لو كنتم تفقهون .

وإن ديناً آمن به اولئـــك العرب الوثنيون وامسكوه بقلوبهم النارية ، لجدير أن يكون حقاً وجدير ان يصدق بـــه ، وان ما اودع هذا الدين من القواعد هو الشيء الوحيـــد الذي للانسان ان يؤمن به ، وهذا الشيء هـــو روح جميع الاديان ، روح تلبس أثواباً مختلفة وأثواباً متعـــددة ، وهي في الحقيقة شيء واحد ، وباتباع هذه الروح يصبح الانسان اماماً كبيراً لهـــذا المعبد الاكبر — الكون — جارياً على قواعد الخالق تابعاً لقوانينه ، لا محاولاً عبثاً أن يقاومها ويدافعها ، ولم اعرف قط تعريفاً للواجب احسن من هذا ، والصواب كل الصواب في السير على منهاج الدنيا فان الفلاح في ذلك (إذ كان

منهاج الدنيا هو طريق الفلاح) . وجاء محمد وشيّع النصارى تقيم أسواق الجدال وتتخابط بالحجج الجائرة ، وماذا أفاد ذلك وماذا أثمر ، أما انه الاهم ليس صحة ترتيب القضايا المنطقية وحسن انتاجها ، وانما هو أن خلق الله وابناء آدم يعتقدون تلك الحقائق الكبرى . لقد جاء الاسلام على تلك الملل الكاذبة والنحل الباطلة ، فابتلعها وحق له أن يبتلعها ، لانه حقيقة خارجة من قلب الطبيعة . وما كاد يظهر الاسلام حتى احترقت فيه وثنيات العرب، وجدليات النصرانية ، وكل ما لم يكن بحق فانها حطب ميت اكلته نار الاسلام فذهب والنار لم تذهب .

أما القرآن فان فرط اعجاب المسلمين به وقولهم باعجازه هو أكبر دليل على اختلاف الاذواق في الامم المختلفة ، هذا وان الترجمة تذهب بأكثر جمال الصنعة وحسن الصياغة ، ولذلك لا عجب اذا قلت ان الاوروبي يجد قراءة القرآن اكبر عناء ، فهو يقرأه كما يقرأ الجرائد ، لا يزال يقطع في صفحاتها قفاراً من القول الممل المتعب ، ويحمل على ذهنه هضاباً وجبالاً من الكلم ، لكي يعثر في خلال ذلك على كلمة مفيدة ، أما العرب فيرونه على عكس ذلك لما بين آياته وبين أذواقهم من الملاءمة ، ولأن لا ترجمة ذهبت بحسنه ورونقه ، فلذلك رآه العرب من المعجزات ، وأعطوه من التبجيل ما لم يعطه اتقى النصارى لانجيلهم ، وما برح في كل زمان ومكان قاعدة التشريع والعمل ، والقانون المتبع في شؤون الحياة ومسائلها ، والوحي المنزل من السماء هدى للناس وسراجاً منيراً يضيء لهم سبل العيش ويهديهم صراطاً مستقيماً ، ومصدر احكام القضاة ، والدرس الواجب على كل مسلم حفظه والاستنارة به في غياهب الحياة . وفي بلاد المسلمين مساجد يتلى فيها القرآن جميعه كل يوم مرة يتقاسمه ثلاثون قارئاً على التوالي ، وكذلك ما برح هذا الكتاب يرن صوته في آذان الالوف من خلق الله وفي قلوبهم اثني عشر قرناً في كل آن ولحظة ، ويقال إن من الفقهاء من قرأه سبعين ألف مرة !

اذا خرجت الكلمة من اللسان لم تتجاوز الآذان ، واذا خرجت من القلب نفذت الى القلب ، والقرآن خارج من فؤاد محمد فهو جدير ان يصل الى افئدة سامعيه وقارئيه ، وقد زعم « براديه » وامثاله انه طائفة من الاخاديع والتزاويق لفقها محمد ، لتكون اعذاراً له عما كان يرتكب ويقترف ، وذرائع لبلوغ مطامعه وغايته ، ولكنه قد آن لنا أن نرفض جميع هذه الاقوال ، فاني لأمقت كل من يرمي محمداً بمثل هذه الاكاذيب وما كان ذو نظر صادق ليرى قط في القرآن مثل ذلك الرأي الباطل . والقرآن لو تبصرون ما هو الا جمرات ذاكيات قذفت بها نفس رجل كبير النفس ، بعد ان اوقدتها الافكار الطوال في الخلوات الصامتات ، وكانت الخواطر تتراكم عليه بأسرع من لمح البصر ، وتتزاحم في صدره حتى لا تكاد تجد مخرجاً ، وقل ما نطق به في جانب ما كان يجيش بنفسه العظيمة القوية . هذا وقد كان تدفع الوقائع وتدفق الخطوب يعجله عن روية القول وتنميق الكلم ، ويا لها من خطوب كانت تطيح به وتطير ، فلقد كان في هذه السنين الثلاث والعشرين قطباً لرحى حوادث متلاطمات متصادمات ، وعالم كله هرج ومرج وفتن ومحن ، حروب مع قريش والكفار ، ومخاصمات بين اصحابه ، وهياج نفسه وثورانها ، كل ذلك جعله في نصب دائم وعناء مستمر ، فلم تذق نفسه الراحة بعد قيامه بالرسالة قط ، وقد أتخيل روح محمد الحادة النارية ، وهي تتململ طول الليل الساهر يطفو بها الوجد ويرسب وتدور بها دوامات الفكر ، حتى اذا اسفرت لها بارقة رأي حسبته نوراً هبط عليها من السماء ، وكل عزم مقدس يهم به يخاله جبريل ووحيه ، أيزعم الافاكون الجهلة انه مشعوذ ومحتال ؟ كلا ثم كلا ! ما كان قط ذلك القلب المحتدم الجائش ، كأنه تنور فكر يفور ويتأجج ليكون قلب محتال ومشعوذ ، لقد كانت حياته في نظره حقاً ، وهذا الكون حقيقة رائعة كبيرة .

والاخلاص المحض الصراح يظهر لي أنه فضيلة القرآن التي حببته الى

العربي المتوحش ، وهي اول فضائل الكتاب أياً كان وآخرها ، وهي منشأ فضائل غيرها ، بل لا شيء غيرها يمكنه ان يبعث للكتـــاب فضائل اخرى .
ومن العجب ان نرى في القرآن عرقـــاً من الشعر يجري فيه من بدايته الى نهايته ، ثم تتخلله نظرات نافذات ، نظرات نبي وحكيم ، أجل لقـــد كان لمحمد في شؤون الحياة عين بصيرة ، ثم له قدرة عظيمة على ان يوقع في أذهاننا كل ما ابصره ذهنـــه ، انا لا احفل كثيراً بما جاء في القرآن من الصلوات والتحميد والتمجيد ، لاني ارى لهـــا في الانجيل شبيهاً ، ولكني شديد الاعجاب بالنظر الذي ينفذ الى اسرار الامور ، فهذا اعظم مـــا يلذني ويعجبني ، وهو ما أجده في القرآن ، وذلك كما قلت فضل الله يؤتيـه من يشاء .

وكان محمد اذا سئل ان يأتي بمعجزة قـــال : حسبكم بالكون معجزة ، انظروا الى هذه الارض ، أليست من عجائب صنع الله وآية على وجوده وعظمته ؟ هذه الارض الـــتي خلق الله لكم ونهج لكم فيهـــا سبلا تسعون في مناكبها وتأكلون من رزقه ، وهذا السحاب المسير في الآفاق لا يدري من اين جاء وهو مسخر في السماء كل سحابة كمارد اسود ، ثم يسح بمائـــه ويهضب ليحيي ارضاً مواتاً ، ويخرج منها نباتاً ونخيلا واعناباً ، اليس ذلك آية ، والانعام خلقها لكم تحول الكلأ لبناً وهي فخر لكم . والسفن — وكثيراً ما يذكر السفن — كالجبال العظيمة المتحركة تنشر اجنحتهـــا وتحتفز في سواء اليم لها حاد من الريح وبينا تسير اذا هي قد وقفت بغتة ، وقد قبض الله الريح . معجزات والله كل هذه ، واي معجزات بعدها تريدون ، الستم أنتم معجزات ؟ لقد كنتم صغاراً وقبل ذلك لم تكونوا ابداً ، ثم لكم جمـــال وقوة وعقل « ثم وهبكم الرحمـــة اشرف الصفات » وتهرمون ويأتيكم المشيب وتضعفون وتهن عظامكم وتموتون فتصبحون غير موجـــودين . « ثم وهبكم الرحمة » لقد ادهشتني جداً هذه الجملة ، فان الله ربما كان خلق الناس بلا رحمة فماذا كان يكون امرهم ! هذه من محمد نظرة نافذة الى لباب الحقيقة ، وكذلك

أرى في محمد دلائل شعرية كبيرة ، وآيات على أشرف المحامد وأكرم الخصال ، وأتبين فيه عقلاً راجحاً وعيناً بصيرة وفؤاداً صادقاً ورجلاً قوياً عبقرياً ، لو شاء لكان شاعراً فحلاً او فارساً بطلاً أو ملكاً جليلاً ، او اي صنف من أصناف البطل .

نعم لقد كان العالم في نظره معجزة ايّ معجزة ، وكان يرى فيه كل ما كان يراه أعاظم المفكرين حتى أمم الشمال المتوحشة ، وهو ان هذا الكوكب الصلب المادي انما هو في الحقيقة لا شيء — انما هو آية على وجود الله منظورة ملموسة ، وهو ظل علقه الله على صدر الفضاء لا غير ! وكان يقول : هذه الجبال الشامخات ستحلل وتذوب مثل السحاب وتفنى ، وكان يقول الجبال اوتاد الارض ، وانها ستفنى كذلك يوم القيامة ، وان الارض في ذلك اليوم العظيم تنصدع وتتفتت وتذهب في الفضاء هباء منثوراً ، فتنعدم . وكان لا يزال واضحاً لعينيه سلطان الله على كل شيء ، وامتلاء كل مكان بقوة مجهولة ورونق باهر وهول عظيم هو القوة الصادقة والجوهر والحقيقة ، وهذا ما يسميه علماء العصر القوى والمادة ، ولا يرونه شيئاً مقدساً بل لا يرونه شيئاً واحداً ، وانما اشياء تباع بالدرهم وتوزن بالمثقال ، وتستعمل في تسيير السفن البخارية ، فسرعان ما تنسينا الكيماويات والحسابيات ما يكمن في الكائنات من سر الله ، وما أفحش ذلك النسيان عاراً ، واكبر هذه الغفلة اثماً . واذا نسينا ذلك فأي الأمور يستحق الذكر ، اذن فمعظم العلوم أشياء ميتة خاوية بالية ، بقلة ذابلة ! نعم وما احسب العلوم لولا ذلك الا خشباً يابساً ميتاً ، وليس هو بالشجرة النامية ولا بالغابة الكثيفة الملتفة التي لا تبرح تمدك بالخشب اثر الخشب فيما تمدك وتعطيك ! ولن يجد المرء السبيل الى العلم حتى يجده أولاً الى العبادة ، أعني أنه لا علم الا لمن عبد ، والا فما العلم الا شقشقة كاذبة وبقلة كما قلت ذابلة .

وقد قيل وكتب كثيراً في شهوانية الدين الاسلامي ، وأرى كل ما قيل وكتب جوراً وظلماً ، فان الذي أباحه محمد مما تحرمه المسيحية لم يكن من

تلقاء نفسه ، وانما كان جارياً متبعاً لدى العرب من قديم الأزل ، وقد تلل محمد هذه الاشياء جهده وجعل عليها من الحدود ما كان في امكانه ان يجعل ، والدين المحمدي بعد ذلك ليس بالسهل ولا بالهين ، وكيف ومعه كل ما تعلمون من الصوم والوضوء والقواعد الصعبة الشديدة واقامة الصلاة خمساً في اليوم والحرمان من الخمر ؟ وليس كما يزعمون كان نجاح الاسلام وقبول الناس إياه لسهولته ، لأنه من أفحش الطعن على بني آدم والقدح في اعراضهم ان يُتهموا بأن الباعث لهم على محاولة الجلائل واتيان الجسائم هو طلب الراحة واللذة — إلتماس الحلو من كل صنف في الدنيا والآخرة ! كلا فان احسن الآدميين لا يخلو من شيء من العظمة والجلال ، فالجندي الجاهل الجلف الذي يؤجر يمينه وروحه في الحروب بأجر بخس ، له مع ذلك « شرف » يحلف به ، فتراه لا يبرح يقول : لأفعلن ذلك وشرفي ! وليست امنية أحقر الآدميين هي ان يأكل الحلوى ، بل ان يأتي عملا شريفاً وفعلا محموداً ، ويثبت للناس انه رجل فاضل كريم ، ليعمد أيكم الى أبلد انسان فيريه سبيل المكرمات والمحامد ، فاذا هو قد تأجج قلبه حماسة ، واتقدت نفسه غيرة ، وصار في الحال بطلا . وما أظلم الذين يتهمون الانسان بقولهم : انه ميال بفطرته الى الراحة ، وانه يستهوى بالترف ويستغوى باللذة . إنما مغريات الانسان وجاذباته هي الأهوال والصعائب والاستشهاد والقتل ، إقدح ما بنفس المرء من زناد الفضل تذك ناراً تحرق سائر ما فيه من الخسائس والنقائص ، وما كان قط اعتناق الناس لدين من الاديان لما يرجون من متاع ولذة ، بل لما يثور في قلوبهم من دواعي الشرف والعظمة .

وما كان محمد اخا شهوات برغم ما اتهم به ظلماً وعدواناً ، وشد ما نجور ونخطىء إذا حسبناه رجلا شهوياً ، لا همّ له الا قضاء مآربه من الملاذ ! كلا فما ابعد ما كان بينه وبين الملاذ اية كانت ، لقد كان زاهداً متقشفاً في مسكنه ومأكله ومشربه وملبسه وسائر اموره واحواله ، وكان طعامه

عادة الخبز والماء ، وربما تتابعت الشهور ولم توقد بداره نار ، وانهم ليذكرون -- ونعم ما يذكرون -- انه كان يصلح ويرفو ثوبه بيده ، فهل بعد ذلك مكرمة ومفخرة ؟ فحبذا محمد من رجل خشن اللباس خشن الطعام ، مجتهد في الله ، قائم النهار ساهر الليل ، دائب في نشر دين الله ، غير طامح الى ما يطمح اليه اصاغر الرجال من رتبة او دولة او سلطان ، غير متطلع الى ذكر او شهرة كيفما كانت ، رجل عظيم وربكم ، والا فما كان ملاقياً من اولئك العرب الغلاظ توقيراً واحتراماً ، واكباراً وإعظاماً ، وما كان ممكنا ان يقودهم ويعاشرهم معظم اوقاته ثلاثة وعشرين حجة ، وهم ملتفون به يقاتلون بين يديه ويجاهدون حوله ! لقد كان في هؤلاء العرب جفاء وغلظة وبادرة وعجرفة ، وكانوا حماة الانوف اباة الضيم وعري المقادة صعاب الشكيمة ، فمن قدر على رياضتهم وتذليل جانبهم حتى رضخوا له واستقادوا ، فذلكم وأيم الله بطل كبير ، ولولا ما أبصروا فيه من آيات النبل والفضل لما خضعوا له ولا اذعنوا ، وكيف وقد كانوا اطوع له من بنانه ، وظني انه لو كان اتيح لهم بدل محمد قيصر من القياصرة بتاجه وصولجانه لما كان مصيباً من طاعتهم مقدار ما ناله محمد في ثوبه المرقع بيده ، فكذلك تكون العظمة ، وهكذا تكون الابطال !

وكانت آخر كلماته تسبيحاً وصلاة ، صوت فؤاد يهم بين الرجاء والخوف ان يصعد الى ربه . ولا نحسب ان شدة تدينه ازرت بفضله ، كلا بل زادته فضلا ، وقد يروى عنه مكرمات عالية ، منها قوله حين رزىء غلامه : « العين تدمع والقلب يوجع ولا نقول ما يسخط الرب » . ولما استشهد مولاه زيد (ابن حارثة) في غزوة « مؤتة » قال محمد : « لقد جاهد زيد الله حق جهاده ، وقد لقي الله اليوم فلا بأس عليه » ولكن ابنة زيد وجدته بعد ذلك يبكي على جثة ابيها -- وجدت الرجل الكهل الذي دب في رأسه المشيب يذوب قلبه دمعاً ! فقالت : « ماذا أرى ؟ » قال : « صديقاً يبكي صديقه » . مثل هذه الاقوال وهذه الافعال ترينا في محمد

أخا الانسانية الرحيم – أخانا جميعاً الرؤوف الشفيق ، وابن امنا الاولى وابينا الاول .

وإني لاحب محمداً لبراءة طبعه من الرياء والتصنع . ولقد كان ابن القفار هذا رجلاً مستقل الرأي ، لا يعول الا على نفسه ، ولا يدعي ما ليس فيه . ولم يك متكبراً ، ولكنه لم يكن ذليلاً ضرعاً . فهو قائم في ثوبه المرقع كما اوجده الله وكما أراد . يخاطب بقوله الحر المبين قياصرة الروم وأكاسرة العجم ، يرشدهم الى ما يجب عليهم لهذه الحياة وللحياة الآخرة . وكان يعرف لنفسه قدرها . ولم تخل الحروب الشديدة التي وقعت له مع الاعراب من مشاهد قسوة ، ولكنها لم تخل كذلك من دلائل رحمة وكرم وغفران . وكان محمد لا يعتذر من الاولى ولا يفتخر بالثانية . إذ كان يراها من وحي وجدانه وأوامر شعوره ، ولم يكن وجدانه لديه بالمتهم ولا شعوره بالظنين . وكان رجلا ماضي العزم لا يؤخر عمل اليوم إلى غد . وطالما كان يذكر يوم « تبوك » إذ أبى رجاله السير الى موطن القتال ، واحتجوا بأنه أوان الحصيد وبالحر ، فقال لهم : « الحصيد ؟ انه لا يلبث الا يوماً . فماذا تتزودون للآخرة ؟ والحر ؟ نعم انه حر ، ولكن جهنم أشد حراً . » وربما خرج بعض كلامه تهكماً وسخرية . إذ يقول للكفار : « ستجزون يوم القيامة عن أعمالكم ويوزن لكم الجزاء ثم لا تبخسون مثقال ذرة . »

وما كان محمد بعابث قط ، ولا شاب شيئاً من قوله شائبة لعب ولهو . بل كان الأمر عنده أمر خسران وفلاح ، ومسألة فناء وبقاء . ولم يك منه ازاءها الا الاخلاص الشديد والجد المر . فاما التلاعب بالاقوال والقضايا المنطقية والعبث بالحقائق فما كان من شأنه قط . وذلك عندي أفظع الجرائم إذ ليس هو إلا رقدة القلب ووسن العين عن الحق ، وعيشة المرء في مظاهر كاذبة ، وليس كل ما يستنكر من مثل هذا الانسان هو ان جميع أقواله واعماله اكاذيب ، بل انه هو نفسه اكذوبة . وأري خصلة المروءة

والشرف – شعاع الله – متضائلاً في مثـــل ذلك الرجل ، مضطرباً بين عوامل الحياة والموت ، فهو رجل كاذب . لا أنكر أنه مصقول اللسان ، مهذب حواشي الكلام ، محترم في بعض الازمان والامكنة ، لا تؤذيك بادرته ، لين المس رقيـق الملمس ، كحمض الكربون تراه على لطفـه سماً نقيعـاً ، وموتاً ذريعاً .

وفي الاسلام خلة أراها من اشرف الخلال وأجلها ، وهي التسوية بـين الناس . وهـذا يدل على أصدق النظر وأصـوب الرأي . فنفس المـؤمن راجحة بجميع دول الارض ، والناس في الاسلام سواء . والاسلام لا يكتفي بجعل الزكاة سنة محبوبة ، بل يجعلها فرضاً حتماً على كل مسلم ، وقاعدة من قواعد الاسلام ، ثم يقدرها بالنسبة الى ثروة الرجل . فتكون جزءاً من اربعين من الثروة ، تعطى الى الفقراء والمساكين والمنكوبين . جميل والله كل هذا وما هو الا صوت الانسانية – صوت الرحمة والاخاء والمساواة يصيح من فؤاد ذلك الرجل – ابن القفار والصحراء .

وينكر البعض تغلب الحسية والمـادية على جنة محمد وناره ، فأقول ان العيب في ذلك على الشراح والمفسرين ، لا على ما جاء في الكتاب ، فان القرآن قد اقل جداً من اسناد الحسيات والماديات الى الجنة والنار ، وكل مـا فيه عن هذا الشأن ايماء وتلميح ، وانما المفسرون والشراح هم الذين لم يتركوا لذة حسية ، ولا متعة شهوانية حتى ألحقوها بالجنة ، ولا عذابـاً بدنياً والماً جثمانياً حتى أسندوه الى النار ، ثم لا تنسوا ان القرآن جعل اكبر مـــلاذ الجنة روحانياً ، اذ قال : « وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوهـا خالدين » ، فالسلام والأمن هما في نظر كل عاقل أقصى اماني المرء وأعظم الملاذ قاطبة ، والشيء الذي عبثاً يلتمسه الانســـان في الحياة الدنيا ، وقال ايضاً : « ونزعنا ما في صدورهم من غل اخواناً على سرر متقابلين » ، وأي رذيلة أخبث من الغل مصدر المحن والمصائب والنقم والآفات ، وأي شيء أهنأ من التآلف والتصافي ؟

وأي دليل أشهر ببراءة الاسلام من الميل الى الملاذ من شهر رمضان ، الذي تلجم فيه الشهوات وتزجر النفس عن غاياتها وتقلع عن مآربها ، وهذا هو منتهى العقل والحزم ، فان مباشرة اللذات ليس بالمنكر ، وانما المنكر هو ان تذل النفس لجبار الشهوات ، وتنقاد لحادي الأوطار والرغبات ، ولعل امجد الخصال وأشرف المكارم هو ان يكون للمرء من نفسه على نفسه سلطان ، وان يجعل من لذاته لا سلاسل واغلالاً تعييه وتعتاص عليه اذا هم ان يصدعها ، بل حلياً وزخارف متى شاء فلا أهون عليه من خلعها ولا أسهل من نزعها ، وكذلك امر رمضان ، سواء كان مقصوداً من محمد معيناً ، او كان وحي الغريزة وإلهاماً فطرياً ، فهو والله نعم الامر .

ويمكننا القول على كل حال بأن الجنة والنار هاتين هما رمز لحقيقة أبدية لم تصادف من حسن الذكر قط مثلما صادفت في القرآن ، وماذا ترون تلك الجنة وملاذها ، وهاته النار وعذابها ، وقيام الساعة التي يقول عنها : « يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما ارضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى » ، ماذا ترون كل هذه الا ظلّا تمثل في خيال ذلك النبي الشاعر للحقيقة الروحانية الكبرى ، رأس الحقائق ، اعني الواجب وجسامة أمره . لقد كان هذا الرجل يرى الحياة أمراً جسيماً ويرى لكل عمل انساني مهما حقر خطارة كبرى ، فما كان من سيء فله من السوء نتيجة ابدية ، وما كان صالحاً فله من الصلاح ثمرة سرمدية ، وان المرء قد يسمو بصالحاته الى أعلى عليين ، ويهبط بموبقاته الى اسفل سافلين ، وان على عمره القصير تقوم دعائم أبدية هائلة خفية ! كل ذلك كان يلتهب في روح ذلك الرجل القفري ، كأنما قد نقش ثمة بأحرف النار ، وكل ذلك قد حاول في اشد اخلاص وأحد جد ، أن يخرجه للناس ويصوره لهم ، فاخرجه وصوره في صورة تلكم النار والجنة ، واي ثوب لبسته هذه الحقيقة ، وأي قالب صبت فيه ، فلا تزال أولى الحقائق مقدسة في اي اسلوب

وأي صورة .

وعلى كل حال فهذا الدين ضرب من النصرانية ، وفيه للمبصرين أشرف معاني الروحانية وأعلاها ، فاعرفوا له قدره ، ولا تبخسوه حقه ، ولقد مضى عليه مئتان والف عام ، وهو الـدين القويم والصراط المستقيم لخمس العالم ، وما زال فوق ذلك دينـاً يؤمن به اهله من حبات افئدتهم ، ولا احسب أن امـة من النصارى اعتصمـوا بدينهم اعتصـام المسلمين باسـلامهم ، اذ يوقنون به كل اليقين ، ويواجهون به الدهر والابد ، وسينادي الحارس الليلة في شوارع القـاهرة احد المارة : « من السائر ؟ » فيجيبـه السائر : « لا إله الا الله » ، وان كلمـة التوحيد والتكبـير والتهليـل لترن آناء الليـل واطراف النهار في ارواح تلك الملايين الكثيفة ، وان الفقهاء ذوي الغيرة في الله والتفاني في حبه ليأتون شعوب الوثنية بالهند والصين والمالاي فيهدمون اضاليلهم ويشيدون مكانها قواعد الاسلام ، ونعم ما يفعلون .

ولقد اخرج الله العرب بالاسلام من الظلمات الى النور ، واحيا به من العرب امة هامدة ، وارضاً هامدة . وهل كانت الا فئة من جوالة الاعراب خاملة فقيرة تجوب الفلاة منذ بدء العـالم ، لا يسمع لها صوت ولا تحس منها حركة ، فأرسل الله لهم نبياً بكلمـة من لدنه ورسالة من قبله ، فاذا الخمول قد استحال شهرة ، والغموض نباهة ، والضعة رفعة ، والضعف قوة ، والشرارة حريقاً ، وسع نوره الانحاء وعم ضوءه الارجاء ، وعقد شعاعـه الشمال بالجنوب والمشرق بالمغرب ، وما هو الا قرن بعد هذا الحادث حتى اصبح لدولة العرب رجـل في الهند ورجـل في الأندلس ، واشرقت دولة الاسلام حقباً عديدة ، ودهوراً مديدة ، بنور الفضل والنبـل والمروءة والبأس والنجدة ورونق الحـق والهدى على نصف المعمورة ؟ وكذلك الايمان عظيم ، وهو مبعث الحياة ومنبع القوة ، وما زال للأمة رقي في درج الفضل ، وتعريج الى ذرى المجد ، ما دام مذهبها اليقين ومنهاجها الايمان . ألستم ترون في حالة اولئك الاعراب وخمدهم وحصرهم ، كأنما قد وقعت

من السماء شرارة على تلك الرمال التي كأن لا يُبصَر بها فضل ، ولا يُرجى فيها خير ، فاذا هي بارود سريع الانفجار وما هي برمل ٍميت ، واذا هي قد تأججت واشتعلت واتصلت نارهـــا بين غرناطة ودلهي . ولطالما قلت ان الرجل العظيم كالشهاب من السماء ، وسائر الناس في انتظاره كالحطب ، فما هو الا ان يسقط حتى يتأججوا ويلتهبوا !

الأبطال

تأليف الفيلسوف توماس كارليل
ترجمة : محمد السباعي

دار الكاتب العربي

فهرست

شهيرات النساء في العالم الإسلامي

السيرة أطرف الوان الادب، لأنها تجلو الاحداث من خلال الابطال، وتبرز التاريخ في اطار من القصة، وتنهض بالمثل بطاقة الواقع، وتوشي الحقيقة بمسحة من الخيال.

وكم من سيرة فرد حركت شعباً، وانطلقت بأمة، وانعطفت بمجرى الأحداث، فكانت مركز الثقل في تاريخ الامم ونهضات الشعوب.

وتاريخنا العربي زاهٍ بسير ابطاله، مباه بأعمال رجاله، الذين كم كسفوا من نجوم وخسفوا من كواكب.

الا ان التوفر على سير شهيرات نسائنا يكاد يكون يتيماً حتى انقطعت له الأديبة الكبيرة قدرية حسين.

وكان ميلاد هذا السفر واسطة العقد في سيرة البطولة، عرضاً لخصال شهيرات نسائنا، وخلال بطلاتنا، وكل منهن في الأدب والفن والحكمة والسياسة بيت القصيد بقول الشاعر:

لو كان النساء كمن فقدنا لفضلت النساء على الرجال
وما التأنيث لاسم الشمس عيب ولا التذكير فخر للهلال

ان سفر «شهيرات النساء في العالم الاسلامي» كتاب كل أم وبنت ومربية، وكل راغب لابنته واخته السيرة الفضلى والقدوة المثلى، في السير على نهج الصالحات الفاضلات.

كتاب «شهيرات النساء» اكتناه صميمي لاسرار حياة مشاهير الرجال، ووقوف واقعي في كواليس الأحداث الهامة من مسرح التاريخ.

الفنون الأدبية وأعلامها

في النهضة العربية الحديثة

تأليف

انيس المقدسي

آخر ما انتجه الاستاذ البحاثة في رحيب ميدان دراساته ، مكرساً اياه للفنون الادبية من سائر وجوهها قصة وسيرة ، خطابة ونقداً ومقالة ، مع وقفة طويلة على سيرة اعلامها ومجالات نشاطهم وتقييم آثارهم بكل ما عرض عن الاستاذ العلامة من روح موضوعية ، وأداء علمي .

دار الكاتب العربي
للتأليف والترجمة والنشر
بيروت - بناية عمر الخيام - ص.ب ٣١٥٧
هاتف ٢٩١١١٨ - ٢٤٠٥٠٦ - ٢٤٠٥٠٧

صدر في منشوراتها

		ق. ل.
آراء غربية في مسائل شرقية	لعمر فاخوري	٢٠٠
المختار من أدب الرافعي		٢٠٠
فن الأدب	ليوسف عبد المسيح ثروة	١٥٠
حرب فلسطين لم تنته	لمنير ابو فاضل	٥٠
تجربة عربي في الحزب الشيوعي	لقدري قلعجي	٢٠٠
لومومبا	لقدري قلعجي	٢٢٥
انا عائد من اليمن	لأحمد السقاف	٢٥٠
ثورة الحرية ، رواية وطنية تاريخية	لهملتون باسو	٣٠٠
قميص من نار ، رواية وطنية تاريخية	لخالدة أديب	٣٠٠
أضواء على تاريخ الكويت	لقدري قلعجي	٥٠٠
الكويت في موكب الحضارة	لقدري قلعجي	٥٠٠
بغداد والثوار ، شعر	لفوزي عطوي	٢٠٠
المعتمد بن عباد (حياته وشعره)	لنديم مرعشلي	٢٠٠
حفنة من تراب الوطن (قصة حياة شوبان)	لقدري قلعجي	٢٠٠
لينين (حياته وآراؤه)	لقدري قلعجي	٢٠٠
كان لي قلب ، شعر	لراضي صدوق	٢٠٠
١٣ قصة ، محاولات جديدة في أدب القصة	لعاصم الجندي	٢٠٠
الشيوعي المليونير	لنجاتي صدقي	٢٥٠
الثائر ، رواية وطنية تاريخية	لرفائيل ساباتيني	٣٠٠
أدباء السجون	لعبد العزيز الحلفي	٣٠٠